فى معرض الآراء

للأستاذ أديب عباسى

أعتقد أننى أنصف الأستاذ العقاد وأختار اختياراً عادلاً إذ أقتبس الفقرات التالية من مناقشته لردى السابق ، فأحاول مناقشتها فيما يأتى من هذه الكلمة . قال الأستاذ :

« ومن طرائف المناقشات أن تأتي هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسى تعقيباً لما أسلفنا فى مقال الحدود الحاسمة الذى قلنا فيه إننا قد نستغنى فى الحدود والتعريفات عن الاحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غنى عن البيان من ضرورة الاستثناء فى كل قاعدة . فاذا قال الانسان إن النهار مضىء وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصى أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التى تظلم بالليل والنهار »

« فقد حدثت كشوف جغرافية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنها كلها لا تخرج عن المتممات التى تأتى بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير »

« فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف فى الأشكال والظواهر وانفتح المجال للبحث فى الحقائق والبواطن أو لمعرفة الانسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه فى موضعه من عالم الأحياء الظاهرين »

« ولقد ذكر الأستاذ « أديب » كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير ... التى حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث فى هذه الأيام »

« ولكن ما شأن هذه الكشوف وما نحن فيه ؟ وأين هى من الحاسة الاجتماعية التى تعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ... ؟ »

* * *

قلت أخشى أن يجرّنا الخوف من « الحدود الحاسمة » إلى الترخّص فى الدقة العلمية والضبط الفكرى وهما السمتان اللتان تتّسم بهما اليوم جميع مباحث العلم وكثيرٌ من مباحث الأدب والفلسفة أيضاً . نحن لا ننكر أنه يجب أن يُستغنى فى الحدود والتعريفات عن الاحصاء والاستقصاء — كما يرغب الأستاذ العقاد — فلا نير الاستثناء بالاً كبيراً ، ولكن على شرط ألا يبلغ هذا الاستثناء الحدّ الذى ينقلب التعريف عنده أو الحدّ من الضدّ إلى الضد

فما قول الأستاذ إذا صارحناه أن هذه الاكتشافات الجغرافية التى جاءت « بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير تكاد — فى رأينا — تفوق فى إثارة الحسّ الاجتماعى الذى ينوّه به الأستاذ تنويهاً قوياً اكتشافات القرن السابع عشر فى الأمريكتين وأفريقيا وآسيا جميعاً ؟

ماذا كانت حوافز الارتياد والاكتشاف الصحيحة فى القرن السابع عشر ، ثم ماذا كانت النتائج القريبة والبعيدة لذلك ؟ قبل أن نحاول الاجابة عن هذا السؤال نقرر أن الكشوف الجغرافية يجب ألاّ تقدَّر تقديراً هندسياً ولا تحسب بكذا ألوف وملايين الأكيال والأميال إذا أردنا تقدير الأثر النفسى أو الحسّ الاجتماعى لها فى نفوس الروّاد والقاعدين وراءهم من شعوبهم أو غير شعوبهم

هذا كولمب أعظم المكتشفين ، أى إحساس اجتماعى وأية معانٍ إنسانية كانت تحفزه إلى الكشف والارتياد ؟ أنقول : لقد جهز كولمب مراكبه وأعد عدته وغامر مغامرته استجابة لما كان يجيش فى نفسه ونفوس قومه من حب الاطلاع على الشعوب المجهولة والأقطار المأهولة الضائعة وراء الاطلانطيك ، فيستطيع أن يصحح للناس آراءهم الخاطئة فى هاته الشعوب والأقطار ؟ أم الأصح أن نقول : إن كولمب غامر مغامرته ليصل إلى الهند التى لم تكن مجهولة إذ ذاك ، ويفتح طريقاً للاتجار وتبادل السلع معها ، غير الطريق القديم ، فقاده وهمه إلى أرض جديدة وشعوب جديدة غير أرض الهند وغير شعوبها ؟ فأية حاسة اجتماعية فى هذا ، وأى معنى من معانى التواصل الانسانى الصحيح ؟

ثم هذه الشعوب التي كانت وراء كولمب ؟ ألم يحفّ كولمب ويوشك أن يدب اليأس المرير إلى صدره فى الانتقال من عاصمة

إلى عاصمة من عواصم أوربا يستجدى مناصرة الأمراء والملوك قبل أن تمنّ عليه إيزابيلا بما منّت ومكّنته من المضيّ فى مغامرته؟ قابل هذا بما يلاقيه الرائد اليوم من العطف والتشجيع المادى والأدبى من جميع طبقات الشعب ، فتدرك أى فرق ثمة بين العصرين !

هذا ولينظر الأستاذ العقاد ما أصاب كولب بعدها من حمق الغفلة ، ولؤم المنافسة ، ليدرك أىّ المعانى الانسانية وأى الحواس الاجتماعية ، وأى الشكر لهـذا الفتح العظيم قد أثار كولب في صدور قومه ! !

قد يقول الأستاذ العقاد : ليس من الضرورى أن تكون الغاية ما ذكرنا من حب التواصل الإنسانى والاستجابة لدواعى الغريزة الاجتماعية ، ويكفى أن تجىء النتيجة كذلك فى هـذه المغامرات والكشوف . أحسب أن الأستاذ يعفينى هنا من الإجابة الطويلة . فهو لا ريب يعلم علم اليقين النتائج المحزنة التى أفضى إليها اكتشاف كولب ودى جاما ومجلان لأميركا وغيرها من الأقطار المجهولة ، ويعلم أن الذهب والفضة والقتل والتحريق والتدمير والاسترقاق والاستعمار كانت النتـائج الأولى لذلك الاكتشاف ؛ فأية حاسة اجتماعية هنا وأى تواصل صحيح بين الناس ؟ !

قابل بين أغراض الاكتشاف وحوافزه ونتائجه هـذه فى القرن السابع عشر ، وبينها فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فترى كيف يجب ألا نقدر الاكتشافات الجغرافية ، من حيث الحس الاجتماعى ، تقديراً هندسياً .

فأنا أرى أن ارتياد القطبين والمعيشة بين الاسكيمو ودراستهم درس العطف والفهم الصحيح لقيمة الحياة البشرية ، وأرى أن اختراق رمال الربع الخالى والاطلاع على نماذج الحياة الأولى فى البادية العربية أجل وأسمى فى الأغراض والنتائج الانسانية من كشف الأميركتين وأفريقيا والهند جميعاً . وأرى أن الفتاة التي تقضى السنين فى إحدى جزر الباسفيك تدرس الحياة الجنسية لأهل تلك الجزيرة وتكتب كتاباً رائعاً تقول فيه : إن هذا الشعب الذي لا يزال على الفطرة أكثر إنسانية وأعظم مدنية فى ممارسة الغريزة الجنسية من أرقى الشعوب الأوربية . هذه الفتاة فى رأيى أعظم فى مجال إثارة الإحساس الاجتماعى والتقدير الصحيح لمركز الرجل المتمدن من جميع الروّاد القدماء .

هذا ويجب ألا يفوتنا أن عصرنا وحده هو عصر الارتياد الجغرافى الزمانى ؛ فالباحث الأثرى اليوم بمعوله ومجرفته فى رمال مصر وربى فلسطين وصحراء العراق يفعل ما لم يفعله ملاح أو رائد من الروّاد القدماء

نضيف إلى هذا أن دارون عاد من طوافه بقارات العالم بأعظم أداة من أدوات إزالة الجهل والغرور والاعتقاد بالكيان الأوحد المنعزل ، حينما سوى بين الإنسان والإنسان ، ووصل بين الإنسان والحيوان ، ولم يكن هذا طبعاً فى القرن السابع عشر

* * *

وأخيراً كشوف الكواكب وكشوف الذرة والأثير وسؤال الأستاذ : « ولكن ما شأن هذه الكواكب وما نحن فيه ؟ وأين هى من الحاسة الاجتماعية التى تعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ؟ »

وهل قلت قط إن الكواكب أو الذرة أو الأثير تثير حسًّا اجتماعيًّا فى النفوس ؟ هل قلتها صراحة أو ضمناً ؟ إننى أتهم نفسى وأعود إلى مقالى أقرأه حرفاً حرفاً فلا أجد شيئاً من ذلك وإنما أجد هناك أننى قلت : « ليست الكشوف الظاهرة قاصرة على الضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف أرجائها المجهولة ، وإنها هنا لأنواع وضروب أخرى من الكشف الظاهرى لا تقل روعة وشدهاً للخيال وصرفاً للإنسان من داخله إلى خارجه عن أعظم المغامرات الجغرافية[1] » . وقد سقت ذلك فى معرض التدليل على أن بواعث الانصراف من الداخل إلى الخارج لا تكفى لتعليل

(١) هنا تجلى الأستاذ العقاد أن يذهب به السهو بحيث يقدر أن الغربيين (وهم المعنيون بهذا الحديث) مثل معظم الشرقيين فى ضؤولة الثقافة وعدم الاحاطة بمختلف العلوم والمعارف فلا يعنون بكشف علمى يكشف . ويكفى أن يلاحظ الأستاذ رواج المجلات العلمية فى أوروبا من شهرية وأسبوعية ثم كيف تذاع أخبار الاكتشاف الهامة على أسلاك البرق فإن لهذا دلالته التى لا تنكر

ظاهرة الاختصاص وبروز الفروق فى الأدب . فهذا عصرنا ملىء ببواعث الانصراف من الداخل إلى الخارج كما كان العصر السابع عشر ، ولكن علم النفس مع ذلك يتقدم باطراد ، ولكن الرواية النفسية التحليلية تحتل المكانة الأولى فى مكتبة الأدب الحديث

وأحسب أن من الخير أن أعيد هنا ما كنت ذكرته فى مقالى السابق تعليلا لظهور الدراسات الباطنة وما تلاها من تأسيس علم النفس التحليلى الذى تهداه أدباء الأجيال الحديثة فى كتابة القصة النفسية أو التحليلية فقد قلت هناك :

« إن هـذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفزيولوجية ، كشفت كذلك الكشوف فى مجاهل النفس وخوافى الحس . فقد اصطنعت الطريقة العلمية فى البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية ، فظهر أولا علم النفس العام وتلاه علم النفس التحليلى ؛ ولكنا نعود ونقول إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة ، وإنما كان الحافز عليها اتساع نهذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مُجدية شملت الجماد والحيوان والانسان جميعاً ... الخ »

* * *

وأخيراً نحن نسلم للأستاذ العقاد بنظريته جملة إذا فسر لنا نشأة علم النفس العام والتحليلى بعده معزولين عن فروع المعرفة الأخرى فى القرن السابع عشر وبعده ، أما إذا اضطر أن يعيد علم النفس فى نشأته وتقدمه إلى حظيرة العلوم الأخرى من حيث الصلة والزمن ، فأحسب أن نظريته لا تسلم له مهما حاول أن يستفيد من « الحس الاجتماعى » و « الدراسة الباطنية » و « الدراسة الظاهرية »

وفى الختام آمل ألا أكون أثرت فى صدر الأستاذ الكبير بهذا الكلام غير الشعور الذى يثيره طلب الحق ونشدان الصدق

أديب عباسى

من بريد الفن

مضت أعوام عديدة على ذلك اليوم الذى شعرت فيه بفتة بدوار الصعود الفكرى ، على أثر مطالعات كثيرة وتأملات عميقة فى عزلة طويلة . وبدا ذلك على وجهى فسمعت طبيباً يسدى إلى النصيحة أن أترك كل شىء وأذهب من فورى إلى البحر ، أستنشق الهواء وأغمض عينى بغير تفكير . لقد كنت أحسب التأمل كل شىء فى حياة الأديب ؛ وكنت أعتقد أن حياتى ستمضى قراءة كلها وتفكيراً على ذلك النحو وبذلك المقدار ، فكنت أستهول العاقبة وأتساءل عن النتيجة

ومرت الأيام فإذا بى أنصرف بعض الشىء عن المطالعة والتأمل . وإذا الأعوام تنفق فى شىء آخر لم يكن فى الحساب: هو البحث عن الجسم الذى تحل فيه تلك الأفكار الهائمة كالأرواح . هنا وضحت لعينى المعضلة . وفهمت أن التفكير فى ذاته يسير ، ولكن العسير هو أن أقيم « الفكرة » على قدميها كائناً نابضاً يتحرك ويسير . إن القليل من عمر الفنان هو الذى يبذل فى التفكير الصرف ، والكثير منه هو الذى يذهب فى سبيل صنع ذلك اللحم والدم الذى ينبغى أن تسكنه الأفكار

إن « الطبيعة » أستاذنا الأعظم نحن الأدباء والفنانين ، تفكر هى أيضاً ، غير أنها لا تفكر « كلاماً » فهى تجهل « اللغات الحية » ، ولكنها تفكر « مخلوقات حية »

« تفكير » الطبيعة «أسلوب» . وإن طريقتها الواحدة فى تركيب الكائنات جميعها : من عالم الجراثيم إلى عالم الأجرام لهى وحدها التى نقرأ منها تفكيرها . « الخلاّق » فى الفن أيضاً لن يستحق هذا الاسم حتى يصبح التفكير عنده مماثلاً لتفكير الطبيعة ، فيملك تلك القدرة السحرية أو الهبة السماوية التى بها يخرج أفكاره من رأسه تجرى لابسة أثواب الحياة

كذلك خالقو الشعوب وبناة الحضارات ، كل عبقريتهم أنهم لا يفكرون « كلاماً » ، وأن الأفكار والتأملات عندهم هم أيضاً لا تكتب كما هى ولا تقال ، إنما ترى قائمة متحركة فى صورة أمة ناهضة أو على شكل ثورة متفجرة

ذلك معنى «الخلق» . وتلك هى «الأفكار» فى لغة كل خلاّق

توفيق الحكيم